

24 يوليو 1999

المؤرخ المصري د. رعوف عباس: يصدر كتابا عن عبد الناصر بعد 3 أعوام

أطاب هيكل بتسليم ما لديه من وثائق للدولة

دولة عربية تجمع بعض الوثائق لأنها تسيء إلى مرحلة في تاريخها !

حوار: سيد محمود حسن

يكتسب الحوار مع الدكتور رعوف عباس أهمية خاصة في مناسبة الحديث عن ثورة يوليو، لأنه واحد من المؤرخين المصريين المشهود لهم بالنزاهة والموضوعية، كما أنه عضو في معظم الهيئات العلمية التي يوكل إليها كتابة تاريخ مصر والعرب الحديث والمعاصر، هذا إلى جانب إشرافه العلمي على إعداد أجيال جديدة من الباحثين الذين ستتاح لهم الفرصة لكتابة تاريخ الثورة عندما تظهر وثائقها الغائبة.

هنا حوار معه عن وثائق يوليو الغائبة وعن " حمي المذكرات " وعن الكيفية التي يمكن من خلالها كتابة تاريخ الثورة بشكل علمي صحيح.

سالت الدكتور رعوف عباس: كيف يمكن للقارئ أن يطمئن إلى كتاب عن ثورة يوليو وسط هذا الزحام من الكتابات المتناقضة في رؤاها ومواقفها ؟

فقال: ما دامت وثائق الثورة غير متاحة فإن عملية ضبط الحوادث بالنسبة لأي كاتب عملية صعبة، لأن ما هو منشور من مواد أولية عن الثورة قليل جدا، ويقصر على البيانات الرسمية والتغطيات الصحفية، التي كانت محدودة جدا بسبب الرقابة، ويضيف: جيلي كله كان ينتظر ما يكتبه محمد حسنين هيكل يوم الجمعة لمعرفة أحداث الأسبوع كله، بوصفه الرجل الناطق بلسان عبد الناصر، لذلك فإن كتابات هيكل تكتسب قيمة كبيرة، لكن كلام هيكل عن الوثائق الموجودة تحت يده، يثير أكثر من علامة استفهام، ويثير الفزع عن مصير الوثائق الموجودة تحت يده، لأنه مهما كانت درجة وعيه بها تظل عرضة للضياع، ومما يعطي لأوراق هيكل ووثائقه أهمية كبيرة أن بعضها منسوخ من وثائق خطية بيد الرئيس عبد الناصر، وهيكل نفسه لا ينكر هذا، وعندما سئل في ندوة في كلية الاقتصاد : لماذا لا يقوم بتسليم هذه الوثائق إلى دار الوثائق القومية؟ قال : إنه لا يثق في أيه جهة حكومية، لكنه على استعداد لتسليمها إلى أية جهة بحثية علمية، وهذه وجهة نظر فضفاضة، لأن أي مركز بحثي وعلمي في مصر هو في التحليل

الأخير جهة خاضعة لسلطة الدولة، والواضح أن هيكل يريد بهذا الكلام أن يبرر لنفسه منطقة في عدم إتاحة أرشيفه المهم للباحثين.

ويتذكر رعوف عباس بأسى أن هناك شخصاً كبيراً وصل إلى أرفع المناصب في الدولة في عهد عبد الناصر مات وترك أوراقه الخاصة في "سحارة" داخل "فيلته" الخاصة، وعندما باع الورثة هذه الفيلا، عرض عليهم المالك إما تسليمهم هذه "السحارة" أو التخلص منها، وهذا يعكس عدم الوعي بأهمية الوثائق.

مثال آخر تذكره رعوف عباس عند خروج د. عاطف صدقي من الوزارة، نشرت الصحف أن هناك "لوري" خرج من جلس الوزراء يحمل أوراقه الخاصة، والسؤال: هل الأوراق الموجود في مكتب رئيس الوزراء تعتبر أوراقاً خاصة، وبالمقاييس إلى هذا المثال، هناك وثائق في غاية الأهمية، خاصة بالثورة، ولا أحد يعرف مصيرها، بل إنني علمت - يقول رعوف عباس - إن هناك دولة عربية كبيرة بدأت جمع هذه الوثائق والأوراق المهمة، وحجبتها عن الباحثين، لأنها تسمى إلى فترة معينة في تاريخها ولا ترغب في نشر ما تعتبره "تاريخاً أسود".

قلت: أنت بهذا المعنى تؤمن بصحة المقولة التي ترى أنه لا تاريخ بدون وثائق؟

لا يمكن التسليم بصحة هذه المقولة على إطلاقها، بمعنى أن الوثيقة مادة من المواد التي تمكن المؤرخ من الإلمام بالحدث التاريخي، وهي تعبر في كل الأحوال عن وجهة نظر كاتبها، وبالتالي فهي عرضة للنقد، وهذا جزء أساسي من عمل المؤرخ، وعندما تتاح للمؤرخ كل الوثائق، يستطيع من خلال عمليات النقد ومقارنه الروايات التوصل إلى أقرب وجهات النظر إلى الحقيقة عند تركيب الحدث التاريخي، والتوصل إلى صورة مشابهة لما حدث بالفعل.

انتشر في الفترة الأخيرة ما يمكن تسميته "محمى كتابة المذكرات" التي تبدو عند مقارنتها متناقضة جداً في رؤيتها للأحداث وللزعيم عبد الناصر، رغم أن أصحابها لا يكفون عن الادعاء بأنهم كانوا قريبين من مصادر صنع القرار!.

علمياً هناك ثلاثة أنواع من الكتابات التي تسميها الصحافة كتابة "مذكرات" النوع الأول: اليوميات التي يكتبها المعاصرون للأحداث، النوع الثاني: المذكرات التي يكتبها الكتاب والمعاصرون اعتماداً على يومياتهم المدونة عن الأحداث، أما النوع الثالث: فهو الشائع حالياً، وهو كتابة الذكريات لا المذكرات، والفرق بين الأنواع الثلاثة ضروري، لأن صاحب الذكريات عادة ما يكتبها بعد تقاعده أو ابتعاده عن مراكز التأثير، وبالتالي تتسم بطابع تبريري، وغالباً ما تختلط على كاتبها الأمور، ويعلم المؤرخون

المتخصصون أن اليوميات يكتبها أصحابها، لا بغرض النشر، وإنما بغرض تسجيل الأحداث، بالتالي فإن مصداقيتها أكبر، وعلى سبيل المثال فإن ما نشر تحت اسم "مذكرات سعد زغلول"، لا يمت إلى المذكرات بصله وإنما هي يوميات كتبها سعد زغلول، لذلك فإنه يتحدث فيها عن إيمانه للعب القمار، ويطلق فيها اللعنات على أشخاص فاعلين في الحياة السياسية، وهذه الجرأة تميز اليوميات، ولو أن سعد زغلول كتبها بغرض النشر، لكان مثلاً أكثر تحفظاً لأنه سيخشى على صورته كزعيم سياسي، أو من وجهة نظري فإن كل ما نشر من ذكريات عن يوليو، يكتسب درجة أقل في الأهمية، لأن المصداقية فيها أقل، وطابعها التبريري وأضح، وعلى سبيل المثال تبدو مذكرات عبد اللطيف البغدادي "باهتة"، رغم أهمية الأحداث التي عاشها صاحبها، وذلك لأنه ظل مشغولاً طوال صفحاتها بانتقاد عبد الناصر وإفراجه بصناعة القرار، رغم أنه يعلم جيداً أن عبد الناصر كان ينظر إلى نفسه باعتباره رئيساً لتنظيم سري، وذلك بحكم بداية الثورة من خلال تنظيم الضباط الأحرار، ولذلك فقد جمع ناصر كل الخطوط في يده، وأعتقد أن تاريخ الثورة لن يدرس إلا بالإطلاع على الأوراق الخاصة بعبد الناصر.

وهل هناك أوراق خاصة بعبد الناصر؟

أعتقد ذلك، وهذه الأوراق تنقسم إلى مجموعتين: الأولى أوراق مجلس قيادة الثورة، وهي غير متاحة حتى أمام اللجنة التي تتولى الآن جمع المادة العلمية الخاصة بمتحف قيادة الثورة، وكل ما تسير لهذه اللجنة جمعة عبارة عن شهادات أقرب إلى "الذكريات" لكنها لا تقدم إجابة واضحة عن السؤال الرئيسي وهو أين أوراق ثورة يوليو؟

أما المجموعة الثانية من الأوراق المهمة للثورة، فهي الأوراق الخاصة بناصر، والتي كانت بحوزة السيد سامي شرف، والتي لا يعرف عنها أي شيء، وربما كانت لدى هيكل نسخة خاصة من هذه الأوراق، وأنا - كما قلت - مندهش، لأنه لم يسلمها حتى الآن إلى دار الوثائق القومية، أما على مستوى الأرشيفات المهمة، التي تتضمن أوراقاً مهمة بالنسبة للثورة، وهي غير متاحة حتى للباحثين والمؤرخين، فهي أرشيفات الرئاسة، وأهمها أرشيف "سراي القبة" الذي لا يزال مغلقاً، وغير مسموح للباحثين إطلاقاً بالإطلاع عليه، ولا يتم حتى الآن إيداع نسخة من هذه الوثائق في دار الوثائق القومية،

رغم أن القانون يلزم هذه الجهات بإيداع نسخة من وثائقها في دار الوثائق القومية، وأي باحث مبتدئ يعرف أن كل وثيقة رسمية كانت تخرج من مكتب عبد الناصر، تخرج منها نسخ توجه إلى جهات وهيئات معينة، وبطبيعة الحال تختلف درجة وسرية الوثيقة بحسب أهميتها. ومن الأرشيفات المهمة أيضاً بالنسبة لتاريخ الثورة، "أرشيف الأجهزة الأمنية"، لأنها لعبت دوراً أساسياً في فترة عبد الناصر، ومعها أيضاً أرشيف جهاز الأمن القومي بمختلف فروعها، وأعتقد أنه قد آن الأوان للسماح بالإطلاع على هذه الوثائق، خاصة أننا بعد عامين سوف نحتفل بمرور خمسين عاماً على قيام الثورة، وهو ما يعني أننا

تجاوزنا الحد الأقصى من قانون سرية الوثائق، والمطلوب أن يأمر الرئيس مبارك شخصياً بإيداع نسخ من هذه الوثائق في دار الوثائق القومية ليكتب تاريخنا بشكل علمي.

توليت لفترة طويلة مسئولية الإشراف العلمي على مركز وثائق وتاريخ مصر المعاصر التابع لوزارة الثقافة، وهو مركز علمي تابع لدار الوثائق القومية، ألم تكن بحوزة المركز أية وثائق مهمة عن الثورة؟

لا توجد في المركز أية أوراق تكتسب مصداقية عن الثورة وهذه كارثة أخرى.

مادامت الصورة على هذا النحو ما أقرب المذكرات إلى الصحة فيما يتعلق بالثورة وأحداثها؟

من ناحيتي أعتقد أن ما كتبه خالد محيي الدين في "الآن أتكلم" من أفضل ما كتب من الناحية العلمية، رغم بعده عن السلطة في فترة مبكرة، أما الوحيد الذي لم يكتب مذكرات رغم أهمية دوره، فهو كمال الدين حسين، والواضح أنه كتب مذكرات فعلاً، لكنها لم تنشر بعد، وقد أتضح ذلك من إجاباته عن الأسئلة التي وجهها له أحمد حمروش، ونشرت في كتاب "ثورة يوليو وعقل مصر" لأنها إجابات تعكس وعياً شديداً بتفاصيل الأحداث، خاصة أن كمال الدين حسين ظل لفترة طويلة في موقع أمين عام مجلس قيادة الثورة، وأظن أن مذكراته لو نشرت ستضيء جوانب مهمة من الثورة، رغم انه نفي بشكل قاطع وجودها أمام بعض الباحثين الذين طلبوا الإطلاع على أوراقه الخاصة.

بعض الكتاب يطالبون بوجود قانون خاص ينظم عملية الإطلاع على الوثائق المهمة، إلى أي مدى يبدو ذلك ضرورياً من خلال خبرتك العملية؟

في حقيقة الأمر، فإنه منذ ظهور قانون إنشاء دار الوثائق القومية، ظهرت عدة محاولات وقوانين وقرارات جمهورية حاولت سد ثغرات القانون القديم رقم 356 لسنة 1954، الذي ينظم عملية الإطلاع على الوثائق، وعمل الدار بشكل عام، لكن الأمر المؤسف - بعيداً عن النصوص القانونية - أن القانون القديم منح بعض الجهات الرئاسية الحق في عدم تسليم ما لديها من الوثائق باعتبار أنها "سرية"، لكن تلك السرية تكون لمدة محدودة" تنتقل بعدها الوثائق إلى الأرشيف القومي للدولة، لأن من حق الباحثين الانتفاع بها، وخلال فترة رئاسة الدكتور محمود فهمي حجازي لدار الكتب والوثائق القومية، تشكلت لجنة لإعداد مشروع قانون جديد للمحافظة على الوثائق القومية، تشكلت لجنة لإعداد مشروع قانون جديد للمحافظة على الوثائق القومية، ومعلوماتي أنه ينتظر العرض على مجلس الشعب، وقد منح هذا منح هذا المشروع دار الوثائق القومية السلطة اللازمة للسيطرة على الوثائق المهمة، لأنه ركز على إلزام كل من لديه أوراق ومذكرات لها صلة بتاريخ مصر، بتسليمها إلى دار الوثائق، وطلبنا أيضاً كلجنة عملية أن

تمنح للدار سلطة الضبطية القضائية، بما في ذلك الأوراق الشخصية والجهات الحكومية والحاصل حاليا أن الوزارات السيادية كالخارجية والدفاع لا تستجيب بالقدر الكافي، وتلتزم بتسليم أوراقها ووثائقها للدار، وأخيرا قامت وزارة الخارجية بتسليم بعض الوثائق إلى الدار، لكنها جعلت الإطلاع عليها محظورا إلا بإذن رسمي من الوزارة، كما حظرت الإطلاع على بعض الملفات التي أودعتها بالدار نهائيا. إذا كانت هناك اعتبارات "أمنية" تحول دون الإطلاع على هذه الوثائق، فالاعتبارات تتغير باستمرار.

في الفترة الأخيرة طالب بعض المهتمين بالتاريخ والوثائق بتبعية دار الوثائق القومية إلى جهة سيادية، ولتكن رئاسة الجمهورية، هل تتضمن مثل هذه التبعية الحفاظ على الوثائق؟

هذا النظام معمول به في كل الدول ذات الأنظمة الرئاسية، لأن تبعية دار الوثائق أو الأرشيف القومي لرئاسة الجمهورية يعطيها سلطة في الاستحواذ على الوثائق المهمة، ويلزم بعض الجهات بإيداع ما لديها من وثائق في الدار، لكن الأهم حاليا، هو طريقة حفظ الوثائق لأنها لا تزال طريقة متخلفة عمليا، بل إنني لا أذيع سرا إذا قلت لك إن كثيرا من هذه الوثائق قد تعرض للتلغ، بسبب الرطوبة، والمطلوب أيضا إلى جانب الحفاظ تصنيف هذه الوثائق وفهرستها علميا لتسهيل مهمة الباحثين.

بعض الناس ينظر إلى الوثائق الأجنبية عن الثورة بتقدير كبير يفوق قيمتها الحقيقية!

هي أيضا تعبر عن وجهة نظر كاتبها، وبشكل عام فإن الوثائق الإنجليزية حتى علم 1952 تعطي صورة شبه متكاملة عن مصر من جميع النواحي، وبعد 1952 نقل أهميتها لصالح الأرشيف الأمريكي، حيث بدأت الخارجية الأمريكية تهتم بمصر بصورة عملية في أثناء الحرب العالمية الثانية، وبعدها ولا تزال طبعا تولى لها نفس الأهمية، بسبب دورها في سياسات الشرق الأوسط ومعلوماتي تؤكد أن كل ما في الأرشيف الأمريكي من وثائق متاح حتى عام 1969، ما عدا الوثائق التي تؤثر على السياسات الأمريكية الحالية.

وهل صحيح أنك تقوم بإعداد كتاب عن عبد الناصر اعتمادا على الوثائق؟

هذا صحيح فعلا، وأمل أن أنتهي منه عام 2002 لأنني حاليا أقوم بفحص الوثائق الأجنبية التي حصلت عليها ومقارنتها بوثائق وشهادات أخرى عن الثورة التي ينبغي أن يكتب تاريخها من زاوية الوعي بأهميتها في تاريخ مصر.